

ازدياد نفوذ الأرمن في مصر في عهد

ال الخليفة الفاطمي الحافظ

(٥٢٥ - ٥٤٤ هـ / ١١٣٠ - ١١٤٩ م)

دكتور / السيد طه السيد

الحمد لله رب العالمين والصلوة على المبعوث رحمة للعالمين وبعد :

فهذا بحث يتناول فترة هامة من تلك الفترات التي شهدتها مصر في أواخر العصر الفاطمي ذلك العصر الذي شهد حكم سبعة من الوزراء، الأرمن حيث ازداد فيه نفوذهم حتى أصبح هؤلاء هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد، وصار الآئمة الفاطميين فيه كالمحجور عليهم.

وقد عالجت على صفحات هذا البحث تلك الدواعي والأسباب التي أدت إلى ازدياد نفوذ الأرمن في مصر و موقف أهل قوص في صعيد مصر من الأحداث التي شهدتها البلاد، وما حاق بها من الأضطرابات بسبب تزايد هجرة الأرمن إلى مصر، وعزل المسلمين عن وظائفهم و مناصبهم أنصار حركة الجهاد العداء، وتلك السياسة التي انتهجها الوزير بهرام وأخوه الباسماك الذي تولى حكم ولاية قوص التي كانت تشمل سائر أنحاء الصعيد حتى أسمان خالد ذلك العصر.

وقد اقتصر البحث على حكم الوزير، الثلاثة الأرمنيين الذين حكموا البلاد في تلك الفترة التي أمتدت قرابة ست سنوات، منذ أن تولى أبو على أحمد بن الأفضل سنة ٥٢٥ هـ، وتولى ابن الفتح يانس الأرمني عام ٥٢٦ هـ، ثم تولية بهرام الأرمني الوزارة عام ٥٢٩ هـ وتلك الظروف التي أدت إلى عزله سنة ٥٣١ هـ، وتبين أهمية تلك الفترة أنها شهدت أحدها هامة كمحاولة تغيير نظام الخلافة الفاطمية، ودور الجندي الأرمني في القضاء على الوزير ابن الأفضل، وانقسام الجيش على نفسه، ووقف حسن بن الحافظ في وجه أبيه الخليفة واستئثاره بالسلطة، وما أصاب الجيش من جراء تلك الحروب ما بين التصريحين وغيرها من الخسارة الفادحة التي لحقت به.

وما أعقب ذلك من جهود الخليفة الحافظ في مواجهة أحداث الفتنة والاستعانته بطائفة الريحانية التي كانت منتشرة بولاية قوص في ذلك الوقت، وتلك الظروف التي جعلت الخليفة يستعين كذلك إلى الغريبة بهرام الأرمني المسيحي حينذاك.

كما تكمن أهمية تلك الفترة في ازدياد نفوذ الأرمن وخاصة بعد تولية بهرام للوزارة وتشجيعه لسفرة بنى جنسه من الأرمن وزيادة نزوحهم إلى مصر، وتلك الدوافع الأخرى التي أدت إلى

ظهور حركة المعارضة من جانب أهل قوم ومحاولة الاستعانة بأمراء الأجناد ووالى الغربية
رضوان بن الولخش من أجل إنقاذ البلاد وتخلصها من ظلم الارمن وتعسفهم ، وما أدى في
النهاية إلى هزيمة بهرام ولجوئه إلى الدير الأبيض بغرب أخيم في عهد الخليفة الحافظ
وذلك بعد مقتل أخيه الباساك في قوص وتلاش نفوذ الارمن قبل زوال حكم الفاطميين ونهاية
عصرهم بقليل .

ازدياد نفوذ الارمن في مصر في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ

دور الارمن في ولایة الحافظ للخلافة:

لما قتل الزاروة^(١) الخيفية الامر في ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ بربع الامير أبو الميمون عبد الجيد - ابن عم الامر - بولاية العهد ولقب الحافظ لدين الله، فشار الجند وأقاموا ابن الأفضل الملقب بـ متفقات في انوزارة^(٢).

ووفقاً لأصول المذهب الفاطمي، فإن الحافظ لم يكن صاحب حق شرعى في الخلافة، وذلك لكونه ليس ابنًا للأمراء، بل أنه سعى إلى التخلص من ابن الخليفة وكتم خبرة بعد مقتله ماشرة (٣).

لم يستطع الامير عبد المجيد الذى لقب الحافظ لدين الله أن يحتفظ بسلطته فى الدولة بسبب ثورة الجناد عليه وتوليتهم ابن الأفضل المزارعة، فقد بدأ هذا الوزير عمله بالتفاهم الفاسد

(١) نسبة الى نزار ابن الأئم الخليفة المستنصر الذى تم استبعاده عن الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٧ هـ وبما يعنى الأفضل لأخيه الأصغر ابن القاسم احمد الذى لقب بالمستعلى بالله فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجه سنة ٤٨٢ هـ . وقد أدى اقعاً، نزار عن الخلافة الى اضطراب الأمور فى بعض البلاد المصرية فخرج أهل الاسكندرية على طاعة المستعلى وانحازوا الى نزار، ولم تنته تلك الاضطرابات الا بعد قيام الوزير الأفضل بالقبض على انتكين ونزار بعد هزيمتهما بالاسكندرية والتنكيل بهما . وكما تشير المصادر فقد أصبح للزيارة أسماء نزار والاد، بعد أن تمكن انحسرين الصباح من نشر دعوته فى بلاد الشرق الاسلامى . وكان أسماء الزيارة يرون ان الامر وأبامة المستعلى ولها الخلافة دون وجه حق ، وقد حضر الى القاهرة جماعة من المشرق ، وكثروا عند الجمرين بينما كان الامر ي يريد العبور الى قصر الهرود بجزيرة الروضة ، فضربوه عدة طعنات ، ومات من يومه بعد أن حل الى القصر الفاطمي ، ابن ميسير : أخبار مصر ، ص ٢٣ ، سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ١١٣-١١٤

(٢) ذكر ابن خثيم أن الامر لما قتل الأفضل سنة ١٥٥ هـ وقبض على جميع أولاده وألقى بهم في السجن وكان من بينهم أبو علي أحمد الذي أخرج الجندي ومتى تولى الوزارة وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٣٥.

(٣) ابن ميسرة: أخبار مصر، ص ٧٤ ، ابن خلkan: وفيات الاعيان، ج ٢ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

عليه وألقى به في السجن في خزانة بالقصر الفاطمي ، وحار لا يسمح لأحد بزيارته إلا باذنه . كما أمر بحذف اسمه من الخطبة واستولى الوزير على جميع ما في قصر الحافظ من الذخائر والأموال معللاً ذلك بأنها كانت لأبيه ^(١) .

كما عمل الوزير الذي استبد بالسلطة على تغيير نظام الخلافة ، فعلى أمر توليته الوزارة شرع في اتخاذ إجراءات غايتها اظهار مذهب الأئمّة وأضعاف المذهب الإسماعيلي في مصر ، فامر باستقطاع اسم اسماعيل بن جعفر الصادق – الذي تنسب إليه الإسماعيلية – من الخطبة والدعا ، لمحمد المنتظر الإمام الثاني عشر عند طائفة الإمامية ، وضرب نانير جديدة باسم الإمام المنتظر ^(٢) ورتب أربعة قضاه وذلك امعاناً منه في أضعاف المذهب الإسماعيلي ، فجعل اثنين من الشيعة واثنين من السنّيين ، أحد هما شافعى والآخر مالكى ^(٣) .

وما شجعه على ذلك الجندي الأربعين الذين صاروا يشكلون غالبية الجيش الفاطمي ، لا سيما بعد أن تلاشى أمر الجندي المغاربة والأتراك بعد أن تكون أمير الجيوش بدر الجمالي من القضاء عليهم ، واستبد بالأمر دون الخليفة المستنصر إلى أن كانت وفاته سنة ٤٨٧ هـ ^(٤) .

لكن صيانت الخاص من حاشية الخليفة ^(٥) رفضوا سياسة الوزير أذ ذاك ونجحوا في تكوين معارضة قوية ضده ، فدبوا مؤامرة للتخلص منه بقيادة الأمير يانس الأرمني ^(٦) متولى الباب ،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ ، المقرizi : اتعاظ الحنفاء ، ج ٣ ، ص ١٤٠

(٢) اختار لنفسه ألقاباً جعل الخطباً يقررون بها اسمه في الخطبة وهي : السيد الأجل الأفضل مالك أصحاب الدول ، المحامي عن حوزه الدين ، ناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والابعدين ، ناصر امام الحق في حالة غيبته وحضوره والقائم في نصرته بعاصي سيفه وصائب رأيه وتدبره . . . ألغى ابن ميسير : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأئمّة ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ .

(٤) ابن منجوب الصيرفي : الاشارة إلى من نال الوزارة ، ص ٥٥ – ٥٦ .

(٥) وهم أولاد الأجناد والأمّة ، وعييد الدولة الذين يتولون خدمة الخليفة في حياته الخاصة وكانت عدتهم نحو الخمسين ويستكونون أماكن خاصة ، ويتدربون على الفروسية . ابن ميسير : أخبار مصر ، ص ٩٩ ، عطية مشرفة : نظم الحكم مصر في عصر الفاطميين ، ص ١٠٩ .

(٦) أحد موالي الأرمن ، أهداه باديس جد عباس الوزير إلى الأفضل ابن أمير الجيوش ، وترقى في خدمته إلى أن أصبح أميراً ثالثاً الباب ، وهي أعظم رتب الأمّة ولكن بابي الفتى ولقب بالأمير السعيد . المقرizi : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

يقول ابن بيسير^(١): "نبدرة بعض صبيان الخاص بطعنة ألقته عن فرسه ونزل فاجتر رأسه ومضى بها إلى القصر، وأخرج الحافظ من الخزانة التي كان بها معتقلًا، وبقي الحافظ بالخانة ببيعة عامة". وهكذا أمكن للأمير يانس الأرمني وجنده من صبيان من أخراج الحافظ من الخزانة التي كان معتقلًا بها، وفكوا القيد عنه وبايعوه بالخلافة ولقبوه الحافظ ودعى لمه على المنابر^(٢).

كانت مكافأة الأمير يانس الذي قاد صبيان الخاص نحو تخلص الحافظ من ذلك الحجر الذي فرضه عليه أبو علي أحمد بن الأفضل أن فوض إليه وخلع عليه بالوزارة وذلك في المحرم سنة ٥٢٦ هـ^(٣). وكان يانس الأمير الأرمني عظيم الهيئة بعيد الغور، فلما ولى الوزارة تخوف من صبيان الخاص وخشي أن يفعلوا به ما فعلوا بأبي علي، وسرعان ما أحسوا بذلك، فتفتتت النباتات ولاحت الوحشة بينهم وبينه، فركب في حرسه وغلمانه ومعه العسكر والتقى بهم وكأنهم نحو الخمسة في موقعة قبالة باب التبانين^(٤) بين القصرين، فقتل منهم ما يزيد على ثلاثة فارس من جندهم، منهم قتلة الوزير السابق ابن الأفضل، وبذلك كسر شوكتهم وأضعفهم^(٥).

قُويَ أمر الوزير يانس وعظم شأنه، فشق ذلك على الحافظ وخاصة بعد أن بدأ الوزير بحاشية الخليفة، حيث تقاضى على قاضي القضاة وداعي الدعاة أبي الغفران صالح بن عبد الله بن رجاء وأبي الفتوح بن قادوس فقتلها ثم قبض على أحد خواص الخليفة واعتقله بخزانة البنود^(٦)، وضرب عنقه وذلك دون الرجوع إلى الخليفة ومن غير مشورته^(٧).

(١) أخبار مصر، ج ٢، ص ٢٥.

(٢) ابن خلkan: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٣٦، المقىء: انتهاز الحنفاء، ج ٣، ص ٤٣.
G.Wiel: Précis De l'Historire D'Egypte tome II, p.192.

(٣) ابن ميسرة: أخبار مصر، ص ٢٥، أبو الحasan: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٤.

(٤) باب التبانين من أبواب القصر الفاطمي الغربي، وقد بنيت في موضعه دار العلم الجديد.
المقريزى: الخطوط، ج ٢، ص ٢١٨.

(٥) المقريزى: انتهاز الحنفاء، ج ٣، ص ١٤٤.

(٦) الببر هي الرايات والأعلام التي كان يستخدمها الجيش الفاطمي وكانت خزانة البنود بجوار القصر الكبير الشرقي، وقد بناها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، وكان فيها ثلاثة آلات صانع مزدوجين في سائر الحرف والصناعات. المقريزى: الخطوط، ج ٢، ص ١٥٥.

(٧) المقريزى: المصدر السابق والجزء، ص ٣١٦.

وهكذا أدرك الحافظ خطورة وزرته أبي الفتاح يانس عليه، وأخذ كل منهما يدبر على الآخر، يقول ابن ميسير^(١): "فسق تدبیر الحافظ فيه وسمه في أبريق فاستعمل منه الماء وقت الطهارة فتلف منه".

وقد حاول الوزير تدارك نفسه بالعلاج حتى قارب على النهوض والشفاء، ولكن الحافظ أصر على التخلص منه فعمل بمشورة طبيبه الخاص فكانت نهايته بأن سقطت أمعائه ومات من ليلته في ذي الحجة سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ مـ، فكانت وزارته تسعه أشهر واباما^(٢).

مكث الخليفة الحافظ لدين الله فترة بدون وزراء بعد موت يانس الأرمي ثم عهد إلى ابنه الأكبر سليمان سنة ٥٢٨ هـ وجعله مقام الوزير، ولكنه مات بعد شهرين، فجعل مكانه ابنه حيدر، فشق ذلك على ابنه حسن لطمعه في ولاية العهد والوزارة، فقد كان أكبر سنًا من أخيه حيدر الذي عينه الخليفة بدلاً منه في الوزارة^(٣).

وكان نتيجة ذلك أن نشب نزاع بين حسن من جهة وبين أبيه وأبيه تراب حيدر، ابن الخليفة الحافظ من جهة أخرى، وانقسم الجيش إلى فرقتين، فرقة الجيوشية^(٤) مع الخليفة وبابه والقسم الآخر من الجيش وهم الريحانية والسودانية مع حسن^(٥)، ودارت الحرب بينهما في شعبان سنة ٥٢٨ هـ، فيما بين القصرين، قتل فيها من الطائفتين نحو عشرة آلاف نفس، مما أدى إلى اضعاف الجيش الفاطمي بفقد جنده وقتل أمرائه من جراء ذلك المصراع حول الانفراد بالحكم أو الاستئثار بالسلطة.

(١) أخبار مصر، ص ٢١،

Lanc Poole: A History of Egypte in the Middle Ages, p.168.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، حوار ث سنة ٥٢٦، المقريزي: اعتظاظ الجناء، ج ٣، ص ١٤٥.

(٣) ابن ميسير: أخبار مصر، ص ٢٦،

G.Wiet: Op.Cit., p.192.

(٤) الجيوشية: تنسب الطائفة الجيوشية إلى أمير الجيوش بدر الجمالى، وقد أقامت خارج باب الفتوح في حارة من الحارات التي ذكرها ابن عبد الظاهر، المقريزي: الخطوط، ج ٢، ص ٣٢٤—٣٢٥.

(٥) الريحانية تنسب إلى عزيز الدولة رihan القائد الذي تولى إخماد ثورة بنى قرة في البحيرة أيام المستنصر، ونقل الفقيه شندي عن ابن عبد الظاهر أنها تضم من الأرمن قرابة من سبعة آلال من الجندي، صبي الأعشى: ج ٣، ص ٣٥٩—٣٦٠، المقريзи: الخطوط، ج ٢، ص ٣٤٤.

ويصور المقريزى^(١) تلك الخسارة الفادحة التي أصابت جيش الفاطميين في عهد الحافظ فيقول: "فكانت أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها ولم يسلم من الريحانية إلا من ألقى نفسه في بحر النيل من ناحية المنس". وقد اختلفت الرواية التاريخية في تقييم عدد القتلى من الفريقين حيث يذكر ابن ميسير^(٢) أن حروب بين القصرين التي جرت بينهما بلغت نحو عشرةآلاف نفس:

ومهما يكن من أمر هؤلاء القتلى فقد استطاع محسن أن يهزم النسر على أبيه، عبد ربه وأبيه الحافظ حتى أنه استبد بالأمر ولم يبق له معه حكم أو سلطان كما يقول ابن الأثير^(٣).

ولم يجد الخليفة الحافظ عنده بدأ من الاستعانت بالجند السودان من الريحانية بسائر أنحاء بلاد الصعيد، فبعث بأحد الامراء^(٤) لكي يحشد ما يقدر عليه من هؤلاء الريحانين ومضى إلى ولاية قوص وجمع من هؤلاء الريحانين واستطاع أن يجمع من الأنفس والأجناد وسار بهم في السفن نحو القاهرة، لكن رحباً سوداء هبّت ففرق أكثرهم في النيل، ولم ينجي منهم إلا القليل بعد أن اشتباك معهم حسن بن الحافظ، فلما عقاب قائد الريحانين أن حمل على جمل وبرأسه طرطور وطوف به، فلما وصل ما بين القصرين رمى بالنشاب حتى مات، كما رمى غيره من القادة وتم قتل الأمير شرف الامراء^(٥).

كان حسن سبيلاً للسيرة ظالماً جريئاً على سفك الدماء، ونهب الأموال حتى هجره الشعراً يومئذ فمن ذلك ما أنسده الشاعر المعتمد الانصارى^(٦):

ولم تر الحق في دنيا ولا دين والجور فيأخذ أموال المساكين تيه الملوك وأخلاق المجانين	لم تأت ياحسن بين الورى حسناً فقتل النفوس بلا جرم ولا سبب لقد جمعت بلا علم ولا أدب
--	---

(١) اتعاظ الحنفا: ج ٣، ص ١٤٩.

(٢) أخبار مصر: ج ٢، ص ٦٦.

Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, 168.

(٣) الكامل، ج ٩، حوادث سنة ٥٢٩ هـ.

(٤) يذكر المقريزى أنه وفي الدولة أصحاق وهو أحد الأساتذة المحنكين بالقصر الفاطمى، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ١٥٠.

(٥) المقريزى: المصدر السابق والمجزء والمنشحة.

(٦) ابن الأثير: البكمان، حوادث سنة ٥٢٦ هـ.

وزارة بهرام^(١) وهجرة الأرمن إلى مصر:

وعلى الرغم من أن الحافظ خليع على ابنه حسن بالوزارة كما يقر ابن الأثير دون غيره من المؤرخين، واستقراره في الوزارة فانه لم يعمل على تهدئة الأمور، بل انه وقف ضد أبيه الخليفة واستبد بالأمر والسلطة، فقتل من الأرمن الذين كانوا أركان الدولة وأصحاب الرأي والمعرفة، فتخرج بقية الجندي منه، وعزموا على خلع الحافظ من الخلافة، وخليع ابنه حسن من ولاية العهد وعزله عن حكم البلاد^(٢).

أدرك حسن بن الحافظ خطورة الموقف، فأسرى إلى أبيه ونزل بالقصر الغربي، فبادر الحافظ بالقبض عليه وأرسل إلى أمراء الجندي يخبرهم بالقبض على ابنه، ولكنهم أجمعوا على طلبه وقتلته^(٣)، فبعث إليهم مرادهم أن يقتل ابنه، وأنه قد أزال عنهم أمره، ووعد هم بالزيادة في الأرزاق والاقتراضات فلم يقبلوا ذلك، وجمعوا الأخطاب والأشتاب لحرق القصر.

وكما يذكر المقريزى^(٤) وجد الحافظ أنه لا مناص آزاره تلك النازلة العظيمة إلا بقتل ابنه لحسم الموقف، فانهم لم يبرحوا من بين القصرين فاستدعي طبيبه ابن قرقه وطلب إليه أن يكون قته مستورا بشيء من العقاقير السامة^(٥)، فأجابه الطبيب، واستدعي الحافظ ابنه حسن وما زال به حتى شرها كرها^(٦)، بواسطة طائفة من الصقالية أجبروه على

(١) كان سبب نزوحه إلى مصر أن القائم بأمر الأرمن في تل باشير شمال حلب قد مات، وكان بهرام أحق بمقاييسه من ولد بعده، فتعصب عليه فريق من الأرمن ورفضوا ولاده عليهم في تلك المستعمرة الأرمنية، فخرج من تل باشير وقدم إلى القاهرة والتحق بالجيش العاطل، حتى أصبح قائدا لفرقة أرمنية بهـ، ابن ميسـر: أخبار مصر، ص ٢٨، دائرة المعارف الإسلامية ج ٨، ص ٢٥٢.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٥٣.

(٣) ابن ميسـر: المصدر السابق، ص ٢٧.

(٤) اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٥٣.

(٥) تقول رواية المقريزى أنه استدعي كل من ابن منصور وابن قرقه من أطباء الخاص قبلهـ بباب منصور اليهودى وفاضلهـ فى عمل سقيهـ لابنهـ، فتخرج من ذلك وانكر معرفتهـ كل الانكار، فتركهـ وأحضر ابن قرقهـ وفاضلهـ فى ذلك فقالـ: الساعةـ، ولا ينقطع منها الجسدـ بل تفيض النفسـ لا غيرـ والزمـ الحافظـ ابنـهـ حسـناـ بـعنـدـهـ منـ الجنـدـ الصـقالـيةـ، فـأـكـرـهـهـ عـلـىـ شـرـهاـ نـمـمـاتـ المصـدرـ السـابـقـ، صـ ١٥٣ـ ١٥٤ـ.

Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p.168.

(٦) ابن ميسـر: أخبار مصر، ص ٢٨.

وفي تلك الاثناء، كان الحافظ قد سير الى بهرام الارمني يستحثه ان يصل اليه بالارمن
وكان بهرام واليا للغربية آنذاك، فخشيد من الارمن وقطعهم الغريبة والعربان وسار نحو
القاهرة لتجده الخليفة واعمل على تخفيض البلاد من تلك الفوضى والاضطرابات والانقسام فـ
صقوف الجيش الفاطمي .

وقد شجع بهرام على القديم نحو حاضرة الخلافة أنه أدرك مدن إنجران الناس من البشر والحضر في سائر الأرجاء عن حسن بن الحافظ، فضلاً عما أسر إليه الخليفة في طلبه، كما يوضّي المقربى ذلك بقوله: «وكان ذلك بعباطة من الحافظ» ولكن قائد الارمن والعربان لما بلغه القاهرة وجد أن حسن قد مات وأن الحشود التي بلغت نحو عشرة آلاف ما بين فارس ورجل فيما بين القصرين تفرقت، فأجمع الجناد أمرهم وشجعوا بهرام على التقدم نحو الحافظ لكن يخلع عليه بالوزارة، فكان أن خلى عليه ونعته بسيف الإسلام تاج الخلافة وذلك في جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ (٢).

وكان بهرام قد تمكن بعد أن وصل إلى القاهرة على أكثر طوائف الجناد من الجيوشية والاسكندرانية والفرجية^(٣) ومن يميل إلى مناصرتهم من الغز الفرياء . ويوضح المقربي^(٤) أن سبب خلع الحافظ عليه بالوزارة أنه جرت فتنه بين الجناد والسودان عندما قتل حسن بن الحافظ

(١) قبل ان الأجناد رفضوا مبارحة القصر ليمضوا الى دورهم الا بعد تأكدهم من قتل ابن الحافظ، فانتدبا أميرا ينعت بالامير المقدم المعظم جلال الدين أبا عبد الله محمد سعربي بجليبه، فندخل على حسن وهو مسجبي وعليه ملائة فكتفت عن وجهه وأخرج من وسطه سكينا وغرسها في مواثيق خطبه من جسمه، فلم يتحرك فعلم حينئذ انه قد مات فرجع الىه وألممه الشير ففتحوا له مم ان الحافظ شبهه بذلك قتل طببيه ابن عرفة - ابن ميسير اخبار مصر ص ٢٨٠

Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, 1882.

(٢) الفرجية نسـ ١١ دائمة من الجنـ السـدان ، كانوا يشكلون عـة طـائقـ هـم الفـرجـيـهـ والـحسـينـيـهـ وـالـمـيمـونـيـهـ نـسـةـ الـىـ مـيـونـ أـمـدـ خـدـامـ الـقـصـرـ الـفـاطـمـيـ وـقـدـ خـلـتـ حـارـةـ الـفـرجـيـهـ حـتـىـ أـيـامـ الـمـقـرـنـيـهـ الـخـطـطـهـ حـ٢ـ، صـ٢ـ، سـ٢ـ.

(٤) اجتماع المغاربة بـ ٣ ص ١٥٥ .

قوى فيها هؤلاء السودان على الجناد الآخرين وأخرجوهم من العاصمة، وكان الجناد السودان مع حسن دون غيرهم من الجناد ولهم شوكة وقوة كبيرة اذ ذاك فتمكن بهرام من القضاء عليهم وعلى آثار الفتنة التي أحدثوها بين صفوف الجيش الفاطمي، مما أدى الى وقوع البلاد في حالة من الفوضى والاضطرابات في ذلك الوقت.

كان بهرام على جانب كبير من الشجاعة والدهاء، وحسن التدبير، وكان الحافظ يميل إليه ويرغب في توليته الوزارة منذ قدومه إلى مصر من تل باشر^(١)، يتضيئ ذلك من اشارة ابن ميسرة^(٢) أن الحافظ «أخذ يستشير من يثق به في ذلك فلم يشر به أحد عليه».

كان من أسباب معارضة الخليفة في أن يخلع عليه بالوزارة لكونه نصراانيا فلا يرضاه المسلمون والثاني من شرط الوزير أن يرقى مع الأئمـاـن المنبر في الأعياد ليزور عليه الـزـارـة الـسـتـارـة) بينـه وبين الناس والثالث أن القضاـء نواب الوزـارـاء منـذ أن تـولـى بـدر الجـالـى أمـيـر الجـيـوش الـوزـارـة وهـم يـذـكـرـون الـنـيـاـبـة عنـهـم فـي الـكـتـبـ الـحـكـيـمـةـ الـنـافـذـةـ إـلـيـ الـاقـافـ وـكـذـلـكـ فـي كـتـبـ الـائـكـحةـ أوـعـقـدـ الزـواـجـ (٢)

لكن الحافظ لم يأبه بتلك المعارضة بعد أن تجلت شجاعته بهرام في حشد الجموع والمسير نحو القاهرة لنجد الخليفة والتخلص من هؤلاء، الأمراء، والأجناد الذين أجبروه في النهاية على انتقامته من الخليفة، فقتل ابنه حسن أو خلعه من الخلافة (٤١).

(١) تقع الى الشمال من مدينة حلب، وكانت آهله بالسكان من الارمن النصارى، وكان توسيع الاتراك السلاجقة في اقليم قياد وقيا في شرق آسيا الصغرى، قد أدى الى نزوح الارمن والبحث عن مستقر جديد لهم فاتجهوا الى اقليم قيليقية الجبلي في جنوب شرق آسيا الصغرى كما عملوا على الاستقرار في الرها وفي ارياض تل باشر في شمال بلاد الشام، وقد شجع بهرام على الهجرة والتزوج الى مصر ان اعدادا كبيرة من الارمن قد سبقته اليها وذلك منذ أن قدموا مع أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا حيث أمكنه تخلص البلاد من شرور الجندي الاتراك والسودان وقتل رجال الدولة، فصار من حينئذ معظم الجيش من الارمن . ياقوت: معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠ ، ابن ميسرة: أخبار مصر ، ص ٢٣ - ٤٠ . المقريزى: الخطط ٢٦ ، ص ٣٠٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٨ ، ص ٢٥٢

(٢) اخبار مصر، ص ٢٩.

(٣) ابن ميسير: أخبار مصر، ص ٧٩.

(٤) المقريزي: اعتاظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٥١.

يقول ابن ميسر (١) : " قلم يضع لذلك وقال اذا رضينا نحن فمن يخالفنا وهو وزير الميف " ومن قوله أيضاً : " وأما صعود المنبر فستتب عنه قاضي القضاة ، وأما ذكره في الكتب الحكيمية فـ حاجة الى ذلك ويفعل ما كان يفعل قبل أمير الجيوش " وهكذا استوزره والناس ينكرون عليه ذلك (٢) .

تولية الباساك حكم قوص وهجرة الأرمن الى مصر :

لم يكتفى الوزير بهرام الأرمي بما أظهره الناس من السخط عليه (٣) ، وطلب من الخليفة الحافظ أن يأذن له في احضار أخيه وأهله لأذن له في ذلك ، فأحضرهم من تن باشر ومن بـ (٤) الأرمن (٤) حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألفاً في مدة قصيرة ، وقد عبر المغيرة (٥) عن نزوح الأرمن وهجرتهم المتزايدة الى مصر حين قال : " وأقبل الأرمن يردون الى القاهرة ومصر من كل جهة حتى صار منهم عالم عظيم " ووصل اليه ابن أخيه ، وكان يعرف بالسبع الاحمر ، فكتسر القيل والقال ، وأطلق أسيراً من الغرير كان من أكابرهم " فاستنكر الناس في مصر ذلك ورفعوا النصائح للحافظ لوقف تلك الهجرة الى الديار المصرية .

(١) ابن ميسر : المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٢) قامت معارضه قوية من رجال القصر ضد تولية بهرام النصراني الوزارة ، وكانت حجتها أن المسلمين في مصر لن يرضوا بذلك ، وقد كان الخليفة على ما يهد و مضطراً لهذا الاجراء لتسكن الفتنة وأنه هو الذي أوعز لبهرام بالقدوم من الغربية ، فلم يأخذ بهـ هذه الاعتراضات ، ورأى أن ينوب القاضي عن الوزير في صعود المنبر كما لا تذكر هذه النيـ في الأحكام . الواقع أن الحافظ لم يراع في ذلك المرسوم الذي أصدره سلفه الامر قبل توليه الخلافة بعدة سنوات حين أعلن فيه عدم استعمال أهل الذمة أو توليهم شيئاً من أعمال الاسلام ، وذلك بعد أن انتشرت فيسائر الديار المصرية قصة فساد الراهب الذى تولى شئون الدواوين في عهد الخليفة الامـ ، وما عم سببه من البلاء لجميع الرؤساء والقضاة والكتاب ، حتى أنه أمر بعزله وأنزل به أشد العقاب في سنة ٥٢٣ هـ . ابن النقاش : المذمة في استعمال أهل الذمة ، ورقة ٩١ مخطوط .

(٣) محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٢٦ .

(٤) ظلت بلاد أرمنية خاضعة لحكم العرب المسلمين منذ فتح تلك الجهات عام ٢٥٥ هـ / ٦٤٥ م حتى عام ٤٤١ هـ / ١٠٤٦ م ثم امتدت فتوح الأئمـ الـلـاجـةـ اليـهاـ فيـ عـامـ ١٠٦٠ مـ .ـ وـ يـقـنـ ولـ دـيـوارـ .ـ مـ لـكـتـهاـ ظـلـتـ طـوـالـ هـذـهـ المـدـةـ صـاحـبـةـ السـيـادـةـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ مـتـسـكـةـ بـمـسـيـحـيـتـهاـ البـلـادـرـىـ :ـ فـتوـحـ الـبـلـادـانـ ،ـ صـ ٢٠١ـ ،ـ قـصـةـ الـحـضـارـةـ ،ـ صـ ١٠٥ـ ،ـ تـرـجمـهـ محمدـ سـدـرانـ ،ـ جـ ١٣ـ .ـ

(٥) انتها : جـ ٣ـ ،ـ صـ ١٥٦ـ .ـ

كانت ولاية قوص في ذلك الوقت أكبر الولايات وأجلها، فعمل على عزل واليها رضوان بن الولخشى عنها وعين بدلا منه أخيه المعروف **الباساك**^(١) فصار واليا على سائر بلاد الصعيد^(٢)، وعمل على اخراج رضوان من القاهرة حيث أسدنه اليه ولاية عسقلان في الشام، لكنه عمل على منه الأرمن من استقرار هجرتهم الى البلاد، أتنا، ولاته، يقول ابن ميسر^(٣): «توجد جماعة من الأرمن يتواصلون في البحر يريدون مصر فناكدهم ورد بعضهم».

وبطبيعة الحال لم يرض مسلك رضوان هذا الوزير ببراءة، بشارة، بله زالاته، نفسه عن عسقلان، واستدعاءه الى مصر وذلك لابعاده عن وجه الأرمن وتواجدهم على مصر^(٤)، ولم يجد بدأ عن ابعاده كذلك عن مقر الخلافة فعهد اليه بولاية الغربية احدى الولايات الرئيسية في الوجه البحري حينذاك^(٥).

كانت سياسة الوزير الأرمني ترمي الى اقصاء الامراء، ورجال الدولة عن القاهرة وتلك الجماعات التي يشكلون فيها خطرا عليه، والعمل على اسناد المناصب الهامة والأعمال الى بني جنسه من الأرمن، ولا شك أن تلك السياسة التي انتهجهها كان لها أثراها البالغ في نفوس الناس سواء في مصر والقاهرة أو في سائر الوجهين البحري والقبلي، فسرعان ما تفاقم الأمر وخشي المسلمين أن يغلبوا على البلاد^(٦)، وظهر أثر ذلك واضحا في ولاية قوص، حينما جار الباساك على الناس واستباح أموالهم، وبالغ في أذى ي THEM وظلمهم، يقول المقريزى^(٧): «فاشتد ذلك على الناس وعظم على الامراء ما نزل بالمسلمين».

(١) واليه ينسب المقريزى منبه الناسك احدى قرى أطفيح من كور مصر في الصعيد شرق النيل ولعل ذلك وقع بطريق الخطأ أو التصحيف في الأسم. الخطوط، ج ١، ص ٣٨٥.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر، ص ٨٠، المقريزى: اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٥٧.

Lane -Pool :A History of Egypt in the Middle Ages, p.168.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٠.

(٤) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٥) كانت ولاية قوص أعظم ولايات مصر زمن الفاطميين وواليها بحكم جميع بلاد الصعيد، يليها في الاهمية الولايات الثلاث الرئيسية: الشرقية، والغربية والسكندرية. القلقشندي: صبح الاعشى، ج ٣، ص ٤٠٠—٤٠١—٤٠٤—٤٠٩، ٤٠٤، ٤٠٩.

عطيه مشرقه: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، ص ١٤٦.

Lane Pool :A History of Egypt in the Middle Ages, p.168.

(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ١٥٩.

ويظهر أن الأمر لم يقتصر على تولى الأرمن الذين قدموا من أعلى الشام وبلاد أرمينية وأزيد من هجرتهم في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي بفضل تشجيع وزيره بهرام الأرمني المسيحي ، وإنما عمل كل من الخليفة والوزير بهرام على الأكثار ايسان استخدام أهل الذمة المصريين . فلم يكن الخليفة يفرق آنذاك في دولته بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة في تولى وظائف الدولة فالجميع لديه سواء متى توفرت لديهم الكفاءات المطلوبة^(١) .

كان الخليفة الحافظ مفرما بالتجريح حتى صار له عدد من المنجحين من أكبر كتاب النصارى وقد استغل هؤلاء الكتاب ذلك الأمر حتى أمكن لهم تولية الآخرين زكريا النصراوى لشئون الدواوين الفاطمية ، حيث زيفوا لل الخليفة أن في استخدامه ما يزيد من الخبرات ونها ، الزراعة والحاصليل ووفرة في الأسماك وزيادة في الصرائب على حد تعبير المقريزى^(٢) ، فلما تولى الآخرون بالغة فسروا استخدام أهل الذمة في سائر الوظائف المدنية دون المسلمين وكما عبر أبو علي عن ذلك يقول^(٣) " إن الفاطميين بالغواوى استخدام أهل الذمة في المناصب المدنية أكثر مما جرت به العادة من قبل " .

وهكذا بلغت الحال عندما عمل الخليفة الحافظ على تغريب الآخرين زكريا وتولية أمر الدواوين ، فلم يلبث أن أعاد كتاب النصارى تعسفهم بال المسلمين وتجبرهم^(٤) ، حيث ركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالسرور المحلاة بالنجف الثقيلة ، وضايقوا المسلمين فسي أزرافهم ، وأستولوا على الأسباب الدينية والأوقاف الشرعية في سائر أنحاء الولايات المصرية^(٥) ،

(١) عطية مشرف : نظم الحكم بصرى في عصر الفاطميين ، ص ١٢٩ .

(٢) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٣) A Short History of the Fatimid Khalifate , p.114.

(٤) أمارات المقريزى إلى ما كان يحدث في بعض الكورة المصرية في عهد الخليفة الحافظ ، ذلك أن أحد الكتاب رفض دفع أجراً للمعدية لصاحبها بحجة أنه مساح القرية ، يقول المقريزى : تغرن في النصارى وسبه وقال أنا ماسح هذه البلدة وتربي من حق التعدية ؟ " وعندما أصر صاحب المعدية على تقاضي أجراً منه ، فوجئ ، بعد انقضائه عدة أشهر أنه مطالب بدفع نائن دينار نظير خراج الأرض لم يزرعها ومدنه عليه برسم " أرض اللجام باسم ضامن المعدية وقد ساحتها عشرة قطعية كل فدان أربعة دنانير .

الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٢٣ .

^(١) واتخذوا العبيد والماليك والجواري من المسلمين والمسلمات.

فمن تلك البيع والكتائس التي تم تعميرها في عهد بهرام الارمني وخليفة الحافظ لدين الله كنيسة الزهرى^(٤)، وبيعة السيدة الطاهرة، وكنيسة يوحنا المعمدان . كما عمرت تلك البيعه وديرها قرب ناحية شيرا وكانت توجد بهذا الدير عدة من الراهبات في مساكن خاصة بهن^(٥) .

كما يذكر أبو صالح الأرمني^(٦) فإن عدداً كبيراً من تلك الكنائس والأديرة قد تم تجديدها أو تشويهها في عهد الخليفة الحافظ وزيرة الأرمني بهرام، ولا غرو فقد كان الخليفة على علاقة جمية برجال الدين المسيحي، كما هو الحال بالنسبة للوزير وعلاقته ببني جنسه من الأرمنيين فمن ذلك ما كان من علاقة وثيقة بين الحافظ وطريقه أطفيح عبر عنها بقوله " ضمن الحافظ أن يكشف له عن السير والملاحم" وجعل له الأدن بالحضور إلى قصر الخلافة في يوم الاثنين والخميس ليسلم عليه ويعرفه ما يتعدد في كل جمعة "(٧)".

(١) وقد عبر الشاعر ابن الخلال عما وصلت اليه حال المسلمين أيام الخليفة الحافظ فأنشد يقول:
اذ احکم النساري في الفرقون وغالوا بالبغال والـ

اد احمد الشهاري في الفرقون
وذلت دولة الاسلام طرا
فقيل لاعور الدجال هذا

(٢) المغربي: اتعاظ الحنف، ج ٣، ص ١٥٩.

(٤) أشار العزيزى الى الموضع الذى عمرت به، فهو يقع فى موضع البركة الناصرية بالقرب من قنطرة السيدة غربى اللقى. الخطط، ج ٣، ص ٥٧٠.

^(٥) تاريخ الكتب وتأريخ الكتب، ج ٢، ص ٣٣ - ٣٩.

(٢) تاريخ الشائس والأديرة، ص ٤٣ - ٤٤، ١٩٥٩.

(٦) تاريخ الكنائس والأديرة، ص ٤.

٢) المصدر السابق، ونفس الصفحة.

كما أشار أبو صالح الأرنى إلى اهتمام ميف الإسلام وتاج الخلافة بهرام — كما نعت عليه — بأمر عماره الكثائس في صعيد مصر، والى ما قام به من أخفاً بعض المال في الكتبة الكبرى (يعنى بذلك كتبة الأرمي الزهرى) حيث صارت تلك البيع عننا له وتمكن سره على حد تعبيره (١).

وما لا شك فيه أن الباساك والى قوص حينذاك اقتضى الفرصة، فسعى جاهداً من أجل انشاء عدّة أدية وكتائس أرمينية فضلاً عن تجديد عمارة كثائس قوص وغيرها من مدن الصعيد كأسوان في الجنوب وأسيوط ومنفلوط ومنبة بالخصيب في شمال الصعيد (٢)، وبطبيعة الحال فإن ذلك أنوار حفيظة الناس وأقلق بهم ما أدى إلى أنهم رفعوا أصواتهم إلى الحافظ خليفة البلاد شاكين متظلين (٣)، فقد كان ذلك مخالفًا لشروط أهل الذمة والمراسيم الصادرة منذ العصر الإسلامي الأول (٤).

ليس من شك أن الخليفة الحافظ لم يكن لديه من السلطة ما يمكنه من الاستجابة لشكوى الناس في ولاية قوص أو في غيرها من الولايات المصرية حينذاك، فمنذ أن تولى أمير الجوش بدر الجمالى في أواخر عهد الخليفة المستنصر أصبح الوزراً، هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد (٥) وذلك حين عمل على الاستئثار بالسلطة دون الخليفة، وتغالي ابنه الأفضل واستبد بالسلطة دون المستعلى وصار وزير السيف كما يقول المقريزى (٦) : « هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد، واليه الحكم في الطاقة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وساتر الرعية، وهو الذى يولي المناصب الديوانية والدينية إلخ ».

(١) تاريخ الكثائس والأدية، ص ٩.

(٢) بلغ عدد الكثائس، ديمش قوس وأسوان أحد عشر تبة وسبعين، ومن الجدير بالذكر أن كثائس قوص تعرضت للهدم والتخريب وذلك في حوالي سنة ٢٢١ هـ، المقريزى الخطط، ج ٣، ص ٥٢٢، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٢٨.

(٣) المقريزى: انتهاج الحنفاء، ج ٣، ص ١٥٩، عبد الرحمن الرافعى، سعيد عاشور مصر في العصور الوسطى، ص ٢٠٨—٢٠٩.

(٤) أمغار ابن زين القاضى إلى تلك الشروط التي وردت في النسخة الصادرة في عهد عمر بن عبد العزير "متوك الخليفة العباسى" وقد تضمنت في بنودها على الأقل مبنى على "كتبسة جديدة ولا ديرًا ولا صومعة ولا قلابة ولا يجدد ما خرب منها" شروط النصارى: ص ٢، ١٢ مخطوط.

(٥) أثينبول: سيرة القاهرة، ص ١٤٧، محمد جمال الدين سرور: الدوائر الفاطمية في مصر، ص ١١٣—١١٤.

(٦) الخطط، ج ٢، ص ١٨٥.

وقد كانت الوزارة منذ نشأتها في صدر الإسلام خاصة لسلطان الخليفة سوا، كانت وزارة تنفيذ أو وزارة تفويض^(١) وكانت سلطة الوزير تنسى أو تضيق وفقاً لرغبة الخليفة، والعمل على عزل الوزير واستبدال غيره في أي وقت يشاً، كما حدث في عهد هارون الرشيد، وابنه المأمون^(٢) وكذلك في العصر الفاطمي الأول.

فقد أصبح الخليفة الحافظ يشبه إلى حد كبير ملوك الفرنجة المبروفنجين^(٣) حيث صار رئيس البلاط هو الشرف على جميع موارد الدولة المتصرف في كافة الأمور والقائم على توزيع سائر الهبات والوظائف^(٤).

وهكذا صار الأمر في عهد الخليفة الحافظ وزيره بهرام الأرمني النصري الذي أسرف في حسابة أبناء جنسه من الأرمن وأخوانه النصارى في مصر^(٥). وأصبحت سياسة هؤلاء لا تتخطى على شيء من الود، بل أنها انتهت ببروح العداء، مما جعل المسلمين على متتابعة الشكابة من جسور حاكم فوض وغيره من أهل بهرام وأقاربه^(٦).

(١) العاودي: *الأحكام السلطانية*، ص ٢٤ - ٢٥، ابن خلدون: *المقدمة*، ص ٢٠٩ - ٢٠٧.

(٢) س: جوانياتي: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ١٠٨، ترجمة عطية القوص.

(٣) يصف المؤرخ ابنهارت ما صار إليه حال ملوك المبروفنجين في القرن السادس الميلادي فيقول "أنه لم يكن للملك في السلالة سوى اسمه، وذواب شعره المرخاة ولحيته الطويلة، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه، أخذ يلهم بادارة شئون الدولة له ولهم الصبية، ويستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف المالك بكلمات يتلقنها ليتفوه بها صاغراً مأموراً، ولم يكن للملك ما يمنع أن يدعية لنفسه سوى ضيعة صغيرة، تمسكه، على حين أصبح رئيس البلاط يسيطر على شئون البلاد والحكم، مهيمنا على جميع السائل السياسية الداخلية منها والخارجية، فيشير: تاريخ أوريا المصور الوسطي، ترجمه: محمد مصطفى زيادنة ص ٢١.

(٤) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ج ١، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٣، ص ٢٢١، طبعة دار الشعب.

(٦) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص ١٢٢ - ١٢٣.

عزل بهرام الأرمني عن الوزارة:

لم يستطع الخليفة الحافظ أن يفعل شيئاً على الرغم من تزايد نفوذ الأرمن ~~وشيكي~~^{والشيوخ} الناس من بهرام وأخيه الباساك حاكم قوص وما أظهره هؤلاً للتصدي لانتصار حركة الجبهة واضطهادهم ولا سيما بعد أن توقفت تلك التجريدات العسكرية إلى عصفان لمواجهة الفرنج بالشام^(١).

وكان الناس ينظرون بغير اهتمامها في كل ستة أشهر كما يذكر أبو الحasan^(٢) فكانت لحمص يتراوح عددها ما بين ثلاثة إلى أربعين من الفرسان، وما بين أربعين إلى ستين في حالة زيادة عدد أفرادها من هؤلاً، الفرسان.

فمنذ تولى يانس الأرمني والوزير بهرام لا يذكر المؤرخون شيئاً عن تلك الحملات العسكرية، مما يدل على توقف تلك التجهيزات والاستعدادات لتسخيرها لجهاد الصليبيين إلى أن تهزم الوزارة الأرمنية سنة ٥٣١ هـ، فاستأنفت نشاطها من جديد^(٣).

وما لا شك فيه أن سياسة الوزير بهرام ومحاولته تعقب أنصار الجهاد الإسلامي في مصر كان لها صداتها عند الفرنج أو الصليبيين، مما شجعهم على معاودة التفكير في غزو البراءة والاستيلاء عليها، كما أن تلك السياسة التي انتهجهما أثارت قلق الناس ومخاوفهم إزاء تلك الأخطار التي أصبحت تهدد مصر من جهة الفرنج بالشام.

وقد بدأت معارضة الناس من أهل قوص بالصعيد، حينما وردت الأخبار عن خصم الباساك أخي بهرام بها، وجهر لهم بالشكوى بعد أن جار عليهم كما يذكر ابن ميسرة^(٤) جوز عض، واستباح أموالهم، فعظم ذلك على أمراء الائتلاف في القاهرة وشق عليهم، فبعثوا إلى الامبراطور

(١) عبد الرحمن الرافعى، سعيد عاشور: مصر في العصر الوسطى، ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) التلجمون الرابع، ج ٥، ص ٢٤٤.

(٣) بمراجعة النصوص التاريخية التي أوردتها كل من ابن ميسرة وابن الأثير أو المغربي لم نعثر على أية إشارة تنبئ عن تسخير حملات عسكرية نحو الشام في تلك الفترة من ٥٢٠ - ٥٣١ هـ، أخبار مصر، ص ٧٥ - ٨٧، الكامل، ج ٩، ص ٢٦١ - ٢٩٦، انعقاد الحلف.

ج ٢، ص ١٤٣ - ١٦٢.

(٤) أخبار مصر، ص ٧٩.

رضوان بن الولخشي وكان والياً مغربياً في ذلك الوقت يحثونه على السير إليهم والعمل على إسقاطهم مما هم فيه^(١) وكان رضوان هذا شديد الحمس لجهاد الصليبيين^(٢).

لما وصلت الى رضوان والى الغربية كتب الامراء لإنقاذهم من سطوة الارمن ^{٤٤} شعر عن
ساعد الجد وأخذ في حشد العربان وغيرهم من المصريين (٤٤) وسار على رأس جيش يلغى عدته
ثلاثون ألف فارس قاصداً القاهرة، ولم يلبث أن أنسحب اليه الجندي المسلمون في جيش بهرام بعد
أن يلقي العاصمة فازدادت بذلك قوته.

وقد شجعه على ذلك أن الحافظ بعث إليه في تلك الآونة، يحثه على السير ونزع الوزاراة من بهرام، وما يدل على ذلك ما عبر عنه المقربى بقوله^(٥): «فآخر لهم كتب الخليفة الحافظ إليه بالتقدير بالمسير ونزع الوزاراة من يد بهرام إذ تبين أنه ليس من أهل العلة».

ويذكر ابن ميسير ان رضوان لما قرب من القاهرة خرج اليه بهرام بعساكر مصر، فلما
تقاربا رفع رضوان للصاحف على الرماح، فلم يلبث عسكر المسلمين بعد أن رأوا المصاحف أن
تركوا بهرام وانحرزوا اليه باجتمعهم (٦).

^(٢) وفي رواية أخرى أنه لما قرب رضوان على رأس جيشه من العريان جمع بهرام الارمن

Wiet: Précis de L'Histoire D'Egypte, tome II, p.192 . (1)

(٢) عبد الرحمن الرافعى : سعيد عاشر : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢١٣ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، حوادث سنة ٥٢١ هـ.

(٤) يذكر ابن ميسير: انه حينما وصلت الى رضوان كتب الامراء شعر لطلب الوزارة، ورق المنبر خطيباً بنفسه وذلك بناحية سخا، فخطب خطبة بلية حرض فيها الناس على الجهاد فس

^{١٥٩} أخبار مصر، ص ٨٠، المقريزي: انعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٢٠.

(٥) المقرizi: المصدر السابق والجزء، ص ١٥٩.

(٦) ابن ميسر: المصدر السابق، ص ٨٠.

(٧) المقرئي: المصدر السابق والجزء، ص ٤٦٠.

الى وأشار عليهم بعدم القتال فائلاً لهم: «اعلموا أننا قوم غرباء، لم نزل نخدم هذه الدولـة والآن فقد كثـر بغضـهم لـيـامـنا، وما كـتـ بالـذـى أـكـونـ عـبـدـ قـوـمـ وأـخـدـهـمـ منـ حـالـ الصـباـ، فـلـمـا بلـغـنـ الـكـبـيرـ أـفـاتـلـهـمـ "وهـكـذاـ أـخـذـ يـنـفـضـعـهـ أـمـرـاءـ الـدـوـلـةـ وـأـجـنـادـهـاـ وـينـضـمـونـ تـبـاعـاـ إـلـىـ رـضـوـانـ وجـيـشـهـ فـيـ تـلـكـ الـأـثـنـاءـ».

ومهما يكن من وجه الاختلاف فإنه لم يحدث قتال بين الطرفين فقد بعث الخليفة الحافظ الى بن رام يخذه من مغبة القتال، ونصحه بالمسير نحو الأئمان القوشية ليقيم بها عند أبيب الباساك حتى تهدأ الأمور (١١).

كان بهرام قد خرج من القاهرة لملاقة رضوان ، فما لبث أن عاد إليها وحصل عنى ما حف حمله وخرج من باب البرقية ، وسار نحو الصعيد متذداً السفن وقد أوسطها بما يحتوي عليه وذلك في جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ (٢) .

وَمَا كَادَ يَبْرُجُ دَارُ الْوِزَارَةِ بِالْقَاهِرَةِ حَتَّىٰ اقْتَحَمَهَا الْعَامَةُ فَنَسَبُوهَا وَهَتَكُوا حُرُمَتَهَا غَلَانٌ هَذِهِ
أُولَئِكُمْ نَهَبُ وَقَعُ فِي دَارِ الْوِزَارَةِ^(٣) كَمَا يَقُولُ الْمَغْرِبِيُّ، كَمَا نَهَبُ الْعَامَةَ سَائِرَ دِيَارِ الْأَرْمَنِ، وَكَانُوا
قَدْ نَزَلُوا بِالْحَسِينِيَّةِ خَارِجَ بَابِ الْفَتوْحَ وَعَمِرُوهَا مَنَازِلَ لِسَكَاتِهِمْ، وَامْتَدَتْ أَيْدِيهِمْ إِلَىٰ كِبِيسَةِ
الْزَّهْرَىِ بِالْاعْتَدَاءِ، وَعَلَىٰ قَبْرِ أَخِيهِ الْبَطْرِيرِيكِ، مَا يَدْلِلُ عَلَىٰ سُخْطِ النَّاسِ وَمِنْهُمْ عَنْصَرٌ
هُوَ لِإِلَامِ وَحْكَمَهُ الْبَغْيَصِ^(٤).

وكان البطريرك جرجورى شقيق بهرام قد سبقه الى مصر ورسم فيها كاهنا سنة ٤٧١ م، وصار بطريركا للكنيسة الأرمنية وجاثليق مصر الأرمني، وذلك قبل تولى أخيه أنطونى

(١) ابن ميسير : أخبار مصر ، ص ٨٠ .

Lane-Pool :A History of Egypt in the Middle Ages, p.168.

(٢) المقرئي: اتعاظ الحنفاء، ح٣، ص١٦٠.

(٣) لما خلع المسمى على بدر الجمالى بالوزارة، بنى له داراً بحارة برجوان عرفت فيما بعد بدار المظفر، وعرفت بعد ذلك بدار الوزارة، ولما تولى الأفضل بنى شمالي القصر الكبير الشرقى داراً عرفت بدار القباب لكتبهن اتخذها دار سكن فقط وعندما وزر العالى ابن الصاحب خضرت الدواوين بالقصر، وسكن هو فى دار خاصة عرفت بالدار المأمونية، ثم اتخد أحمد ابن الأفضل المعروف بكتيقات دار القباب داراً للوزارة، وقد ظلت بعد ذلك مركزاً لشئون

(٤) أختي مصطفى ص ٨٠

في عهد الخليفة الحافظ (١).

ولاشك أن ما أخذته إنعاماته أراها، الأرمن في مصر والقاهرة كان رد فعل طبيعي نتيجة لشنائى السياسة التي اتخذها بهرام ، وبحسب الشديد لبني جنسه بتزايد نفوذهم . حيث سارت سائر الوظائف في أيديهم (٢) .

قتل الباساك وزوال حكم الأرمن :

وفي تلك اللائتى سارعت الاخبار الى قوص بهزيمة بهرام وخروجه من القاهرة ، عذان سهـا صداتها ، يقول ابن ميسـر (٣) : " وانتشر الخبر بنهـزام بهرام فظهورـه من القاهرـة ، وصـولـه اليـها ، فثارـ المـسلـمـونـ أـيـضاـ بـقوـصـ علىـ البـاسـاكـ وـقتـلوـهـ " .

وهكذا أسرء أهل قوص للتخلص من حاكمـهمـ الـأـرـمـنـيـ فـقـتـلـوـهـ (٤) ، ولم يستطعـ بهـرامـ الـوزـيرـ المعـزـولـ أنـ يـنـفـذـ أـخـاهـ منـ مـصـيـرـهـ الـمحـتـومـ ، فـحـينـماـ وـصـلـ إـلـىـ قـوـصـ بـعـدـ يـوـمـيـنـ فـقـطـ ، وـمعـهـ جـنـدـهـ وأـهـلـهـ مـنـ أـرـمـنـ ، عملـ عـلـىـ نـهـبـ الـمـدـيـنـةـ بـعـدـ أـنـ قـتـلـ جـمـاعـةـ مـنـ أـهـلـهـ وـذـلـكـ اـنتـقاـمـاـ لـمـصـرـ أـخـيـهـ (٥) .

أصبح رضوان بن الولخشى وزيرا للبلاد ، بعد أن خلى عليه الحافظ ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل ، فكان أول وزير لقب بالملك ، وذلك في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ (٦) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الثامن ، ص ٢٥٢ .

(٢) المصدر السابق والجزء والمصححة ، لينيل : سيرة القاهرة ، ص ٤٥ .

(٣) أخبار مصر ، ص ٨٠ .

(٤) لقي الباساك مصره على يد ابن ميسـرـ ، منـ أـهـلـ تـرسـ ، وـمـسـواـ بـهـ زـيـادـ ، اـنـ زـيـادـ ، اـنـ مـيـتـ ، وـلـقـوـهـ عـلـىـ مـيـلـةـ ، ابنـ مـيـسـرـ ، المصدرـ السـابـقـ ، صـ ٨٠ .

(٥) Lane-Pool: Op.Cit., p.158.

(٦) ابن ميسـرـ ، أـخـارـهـ ، عـنـ ١٠٠ـ مـخـيـثـ سـيـرـةـ ، شـئـمـ الـحـكـمـ بـمـصـرـ فـيـ هـصـرـ الـأـشـوريـينـ ، صـ ١٣٢ .

لم يطمئن رضوان الوزير الى انفصال بهرام عن القاهرة وسيره نحو قوص، فعمل على تسخير أخيه ابراهيم ومعه سائر العسكر وقطع الأسطول لتعقب بهرام ومحاولة القبض عليه قبل استفحال أمره في جنوب الصعيد واستيلائه على أسوان والاتصال بذلك النوبة لتقديم العون لـه لاسترداد حكمه (١).

وكان بهرام في مسيرة نحو الصعيد يسعى في الواقع إلى تحقيق ذلك فسرعان ما قصد سراي ، لكن راكبها أكثر إصرارة (٢) اشتباك معه في معركة قتل فيها عدداً كبيراً من بهادر الارمن وحال بينه وبين الاستيلاء عليها ، وكان جيش بهرام يبلغ نحو ألفين من الجنود الأرمن حنىذاك (٣) .

ولما بلغ ابراهيم قائد الجيش الفاطمي ولقى بهرام أضطر للتسليم دون قتال بينهم، ولم يكن الخليفة الحافظ حينذاك على ما ييد ورغبة في قتال بهرام حيث كان يحمل القائد معه إماماً له ليعود تكريماً ومعه طائفته من الجناد الأربين (٤).

وكان الخليفة قد تلطى ببرضوان في أمر بهرام وقرر معه أن يستدعيه وينزله في القصر
الباطئ ، يقول المقريزى^(٥) : " وحلف له انه لا يولى أمرًا ولا يمكنه من تصرف فتسامى
رضوان في أمره " .

وهكذا اضطر بهرام الى الرجوع واللجوء الى الاذيرة البيض غربن مدينة اخيم^(٦) ، وذلك بعد أن فارقة أكثر الجناد ، فعنهم من سار الى بلاده ، ومنهم من أقام بمصر ليعملوا في فلاحه

(١) المقريزى: اعتقاد الحنفأ، ج ٣، ص ١٦٠.

(٢) كنز الدولة لقب منحه أول مرة الحكم بأمر الله لامير اسوان أبي المكارم هبة الله بعد انتصاره على أبي رکوه الخارج حينئذ على الحكم واصحاد ثورته ثم أصبح هذا اللقب وراثيا في اسرة ابن المكارم بعد ذلك، ابن الاخير: الكامل، ج ٨، حوار ثستة ٣١٧ هـ، عطية القوصى: زاوية دولة الكنوز الاسلامية، ص ٥٣ - ٥٥.

(٣) المقرنی: اتعاض الحنفاء، ج ٣، ص ٦٦١.

(٤) المصدر السابق والجزء والمصفحة.

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٦) يذكر ابن ميسرة أن بهرام سار إلى أسوان فنزل بالاديرة البيضاء، بينما يشير المقريزى إلى أن هذا الدير يقع غرب ناحية سوهاج (حالياً) وذلك عند حدشه عن دير "بئر شنوده" الذى خرب ولم يبق منه الا كنيسة. الخططه ج ٣ ص ٥٦١

الارض والزراعة، حيث أفردت لهم بعض الجهات للاقامة بها، كان من أهمها نواحي سمالوط^(١) وابوان^(٢) وأفلوسنا^(٣) والبرجين^(٤)، كما جعلت لهم ضيعة اخرى باعمال المحلة في الوجه البحري^(٥).

وقبل نهاية العام اصدر الوزير أوامره لاستخدام المصريين في المناصب التي جعلها بهرام لبني جنسه من الأرمن وأهل الذمة الآخرين^(٦)، كما انشأ رضوان ديوان الجهاد^(٧)، كما اهتم بتقوية وتحصين التغور واتخذ التجهيزات لتعيبر عسقلان بالشام^(٨).

وفي سنة ٥٣٢ هـ شدد رضوان على أنصار بهرام من الأرمن وقادر ممتلكاتهم، وعمل على التخلص منهم^(٩)، وبذلك تلاشى أمر الأرمن وزال خطرهم عن البلاد . وقد عبر عن موقف أهل قوص آنذاك الشاعر هبة الله بن على بن عرام الأسواني^(١٠) وعن شجاعة الوزير رضوان وهزيمته له بهرام فأنشد له قصيدة يمدح بها رضوان جاء في مطلعها :

أبدا وليثا للعداء مريعا
لا زلت غيشا للعنقاء مريعا
بك أصبح الاسلام طلقا ضاحكا
والعيش غضا والزمان ربيعا^(١١)

هذا وتختلف الروايات التاريخية فيما صار اليه أمر بهرام الأرمني بعد ذلك، فبينما

(١) ذكره ياقوت انها قرية غربى النيل من قرى الصعيد وهي أحد مراكز المنيا حاليا.

(٢) احدى قرى الصعيد الادنى في غربى النيل تابعة لكوره البهنسا باقليم المنيا . ياقوت العوى : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٠ .

(٣) احدى القرى التابعة لمركز بنى زبار بمحافظة السنطة . ابر مماتي . قواوين الدواوين ، ص ١٢٠ .

(٤) من اعمال الجيزة ، المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٥) المقريزى : انتاظ الحنفاء ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٦) ابن ميسير : اخبار مصر ، ص ٨٢ .

(٧) يذكر القلقشندي أن ديوان الجهاد هو ديوان العماائر لانشاء المراكب وصناعة السفن الحربية وغيرها مما يستخدم في حمل الفلال السلطانية والاحطاب وغيرها ، ومنه ينفق على رئيسه ،

المراكب ورجالها ، وكان موضعه دار الصناعة في مصره صبيح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٩٦ .

(٨) المقريزى : المصدر السابق ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٩) ابن ميسير : اخبار مصر ، ص ٨٢ .

(١٠) اورد الأدفوكى ترجمة له وانه كان أصغر من ابن عميه السادس ، وكانتوفاته سنة ٥٥٠ هـ .

(١١) الأدفوكى : الطالب السعيد ، ص ٧٠٤ - ٧٠٥ .

يذكر ابن ميسير^(١) أن بهرام لجأ إلى الأذيرة البيض وهي أماكن حصينه عند أسوان، يشير ابن الأثير^(٢) أن بهرام في أعقاب هزيمته على يد والي أسوان والجند السودان، أرسل إلى الحافظ يطلب الأمان فأمنه، فعاد إلى القاهرة وسجن بالقصر، وبعد أن مكث به فترة خرج منه ثم تردد بعده ذلك.

ولعل الأقرب إلى الحقيقة هو ما أشار إليه المقريزي^(٣) فهو يذكر أن بهرام لجأ إلى الدير الأبيض غرب أخميم، فمكث به حتى سير إليه الخليفة الحافظ في رمضان سنة ٥٣٣ هـ من أحضره إلى القاهرة فاسكه في القصر ولم يمتهن من التصرف، إلى حين وفاته بعد عامين أي سنة ٥٣٥ هـ.

ومهما يكن من أمر فإنه بهزيمة بهرام وعزله عن حكم البلاد، كانت نهاية الأئم وزوال نفوذهم، كما أسدى الستار على العصر الذهبي في مصر قبل زوال الخلافة الفاطمية بقليل.

(١) أخبار مصر، ص ٨٠.

Lane-Pool : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 167.

(٢) الكامل، ج ٩، حوادث سنة ٥٣١ هـ.

(٣) المقريزي: انتظار النور، ج ٢، ص ١٦٦، ١٧٥.

Wiet: Précis de L'Histoire D'Egypte, tome II, p. 193.

مصادر البحث

أولاً : المخطوطات:

- ١ - ابن زين القاضي ، أبو محمد عبد الله بن أحمد (ت ق ٩٥)
 * شروط النصارى ، كتبه سنة ٨٥٩ هـ ، مخطوط بدار الكتب ٣٩٥٢ ، تاريخ رقم ٦٨٦٥٠ ميكروفيلم .

- ٢ - ابن النقاش ، أبو اماماً محمد بن علي (ت سنة ٢٢٢ هـ)
 * الدرة في استعمال أهل الذمة ، مخطوط بدار الكتب ٣٩٥٢ تاريخ رقم ٦٨٦٥٠ ميكروفيلم .
- ثانياً: المصادر الطبيعية :**

- ٣ - ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد المتوفى سنة ٦٣٠ هـ
 * الكامل في التاريخ ، المجلدان الثامن والتاسع ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان
 ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

- ٤ - أبو الحasan ، جمال الدين يوسف بن تغري بردي
 * النجوم الظاهرة في سلوك مصر والقاهرة ، المجلد الخامس ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .

٥ - أبو صالح الارمني (متوفى أوائل القرن السابعة انهجري)

* كنائس واديره مصر ، نشرة Evetts اكسفورد ١٨٩٣ م

- ٦ - الادفوی ، كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)
 * الطالع السعيد الجامع اسماء ، خباء ، الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، طبعة البدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ م

٧ - ابن الصيرفي ، أبو القاسم علي بن منجب المتوفى سنة ٥٤٢ هـ .

- * الاشارة الى من نال الوزارة ، تحقيق عبد الله مخلص ، نشر المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ، ١٩٢٤ م .

٨ - الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب المصرى (٣٢٠ - ٤٥٠ هـ)

- * الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٣ م

- ٩ - المقريزي، تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) * المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ٣ أجزاء، طبعة دار التحرير عن طبعة بولاق، سنة ١٢٢٠ هـ .
- ١٠ - ابن ميسرة، محمد بن على بن يوسف بن حلب (ت ٦٢٧٣ هـ / ١٢٧٨ م) * أخبار مصر، الجزء الثاني، طبع المعهد العلمي الفرنسي .
- ١١ - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦٦ هـ / ١٢٢٩ م) معجم البلدان، خمسة أجزاء، طبعة دار أحباء التراث العربى ، بيروت (١٣٦٦ - ١٩٧٩ م) .

ثالثاً: المراجع العربية الحديثة:

- ١٢ - توفيق سلطان البوزركى دراسات في الوثائق الإسلامية (عبد عمر بن الخطاب للنصارى) بحث نشر المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني والعشرون، القاهرة، ١٩٢٥ م .
- ١٣ - سئائل لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن ابراهيم حسن، على ابراهيم حسن، القاهرة، ١٩٥٠ م .
- ١٤ - رؤف حبيب: تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم، نشر مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧٨ م .
- ١٥ - هـ. أـ. لـ. فيشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريش ، نشر دار المعارف، ١٩٦٩ م .
- ١٦ - عبد الرحمن الراafعى ، سعيد عاشور: مصر في العصر الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو العثماني، القاهرة، ١٩٧٠ م .
- ١٧ - عطية الوجهى: تاريخ دولة اسبراء الإسلامية ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١ م .
- ١٨ - عطية مصطفى مشرفة: ن THEM الحكم بمصر في عصر الفاطميين ، نشر دار الفكر العربي ، ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٨ م .

١٩ - محمد جمال الدين سرور:

* الدولة الفاطمية في مصر سياسة الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي
القاهرة، ١٩٧٤ م.

٢٠ - محمد حمدي الشناوى:

* الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، ١٩٧٠ م.

رابعاً: مراجع باللغة الأجنبية:

1- Abu-Saleh : The Churches & Monasteries of Egypt, London,
1949.

2- Stanley Lane-Poole:

A History of Egypt in the Middle Ages, Fourth
Edition, London, 1925 .

3- O'Leary D.L.:

A Short History of the Fatimed Khalifate, London,
1923 .

4- Wiet, G.:

L'Egypte Musulmane, Précis de L'Histoire D'Egypte
tome II, Caire, 1932 .

5 - Encyclopedia of Islam.